منطق الطير

القصـــة الصوفية الخالدة

للدكتور عبد الوهاب عزام

فريد الدين العطار ، شاعر صوفى عظيم من شعراء القرن السادس الهجرى . وهو أحد الثلاثة الذين انتهت اليهم الامامة ، بين شعراء الفرس المتصوفين ، والآخران مجد الدين سنائى الغزنوى ، ومولانا جلال الدين الرومى .

وللعطار من المنظومات الصوفية زهاء أربعين ، بعضها يحتوى على عشرة آلاف بيت . وهو أحد المؤلفين الذى حالت كثرة مؤلفاتهم دون معرفة آرائهم معرفة بينة .

وأعظم منظوماته وأسيرها وأدخلها فى الشعر ، منظومة سماها « منطق الطير » وتعرف أحيانا باسم « هفت وادى » اى سبعة الأودية . وهى زهاء ٤٦٠٠ بيت ، قص فيها اجتماع الطير وتساؤلها عن ملكها وتعريف الهدهد اياها بهذا الملك ومكانه ووصفه الطريق اليه ، ثم توليه قيادة الطير التى رضيت بالسفر الشاق الى ديار العنقاء ، واجتيازه بها سبعة أودية ، وما أصاب سفر الطير حين بلغ غايته : ويتخلل هذا قصص عديدة يفصل بها السياق ، ويبين بها بعض مقاصده .

وأنا أجمل لقراء الرسالة هذه القصة على طولها فى صفحات قليلة ، وعسى أن أستطيع من بعد نقلها كلها الى اللغة العربية :

يبدأ العطار كتابه بحمد الله وتمجيده والثناء عليه ، بكلمات هى غاية ما بلغته فلسفة الصوفية ، ثم يثنى بفصل عنوانه « نعت سيد المرسلين وخاتم النبيين » يطيل فيه ما شاءت بلاغته وايمانه ، ثم يثلث بمدح الخلفاء الراشدين على نسقهم فى الخلافة ، وينعى على أهل العصبية الذين يفرقون بين صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويذكر ست قصص لتأييد رأيه

ثم يشرع فى مقصوده بعد هذه المقدمة التى تستغرق ستمائة بيت ويعالج الموضوع فى خمس واربعين مقالا وخاتمة .

يبدأ بوصف اجتماع الطير ، ويذكر فيما يذكر منها الهدهد والببغاء ، والدراج والبلبل والطاوس ، والفاختة والقمرى والبازى . ويصف شكل كل طائر وطباعه .

اجتمعت الطير فتشاكت ما هى فيه من الفرقة والفوضى ، وفقد رئيس يجمع كلمتها ويهديها السبيل ، على حين لا تخلو أمة من ملك . فانبرى الهدهد يخطب فيذكر خبرته واعتزاله الناس ، وجده فى طلب الحق ، وصحبته سليمان بن داود ، وأنه طوف الأرض سهلها وحزنها ، وخبر قاصيها ودانيها . ثم قال : عرفت أن لنا ملكا ، ولكن عجزت عن المسير اليه وحدى ، فان تعاونا استطعنا أن نبلغ مكانه . إن لنا ملكا اسمه سيمرغ وراء جبل اسمه جبل قاف ، هو منا قريب ونحن بعيدون . هو فى حرم جلاله لا يحيط البيان بوصفه ، ودونه آلاف من الحجب — واستمر الهدهد يفيض فى وصف السيمرغ ، حتى راع السامعين بيانه . قال : وأول عهد الناس به أنه كان طائرا فى ظلمات الليل فوق بلاد الصين ، فسقطت من جناحه ريشة ، فقامت قيامة الامم ، وأعجب الناس بما فيها من الألوان العجيبة والنقش ، وتعلم كل منها فنا . ولا تزال هذه الريشة فى الصين ، ومن أجل هذا جاء فى الأثر : (أطلبوا العلم ولو فى الصين) ولو لم يظهر فى هذا العالم نقش هذه الريشة ما كان فى العالم أحد منكن أيتها الطير .

فلما سمعت الطير بيان الهدهد ، هاجها الشوق الى السيمرغ وأزمعت الرحلة اليه ، ثم ذكرت ما فى الطريق من أهوال فبدا لبعضهن أن يؤثر العافية ، فادعى كل لنفسه عذرا :

قال البلبل : انا إمام العاشقين ، ملأت القلوب وجدا بأغاريدى ، فكيف أستطيع مفارقة حبيبى الورد .

وقالت الببغاء : ان جمال هذا الريش أغرى بى الناس ، فحبسونى فى الاقفاص ، فقاسيت الغم الطويل والألم الممض ، حسبى ما قاسيت على انى لا أستطيع ان أطير تحت جناح السيمرغ .

وقال الطاوس : كنت مع آدم فى الجنة فطردت منها ، وكل همى أن أعود اليها راسب بعد قادرا على مصاحبة السيمرغ

ويذكر البط طهارته وعيشه فى الماء وزهده ، ويعتذر بأنه لا يستطيع مفارقة الماء والعيش على اليبس . ويعتذر الحجل بانه ألف الجبال فلا يستطيع أن يبرحها . وتعتذر الصعوة بضعفها ، والبازى بأنه لا يود أن يترك مكانه من أيدى الملوك . وهلم جرا .

يجادل الهدهد هذه الطيور ويردعليها أعذارها ، ويرشدها الى الخير ، ولا يألو فى النصح لها . فتطيف الطيور بالهدهد تسأله : كيف يقطع هذا الطريق البعيد ، وما ذا يصلنا بهذا الملك العظيم ، فى أسئلة كثيرة ، فيوبخهن على التوانى فى الطلب ، والركون إلى الدعة ، والوجل من لقاء الشدائد . ثم يقول مبينا نسبة الطير الى السيمرغ انه تجلى كالشمس من وراء الحجب ، فبدت آلاف الظلال على الأرض وما الطير الا هذه الظلال . ثم يقول : ان العشق اذا صدق استهان العاشق كل شىء فى سبيله ، واقتحم كل عقبة الى حبيبه .

(وهنا يستطرد الشاعر الى قصة الشيخ صنعان الذى أخرجه العشق عن طوره . وهى قصة عجيبة تستغرق أكثر من ٢٠٠ بيت ولا يتسع لها المجال هنا ، ولا يحسن اجمالها)

هاجت الطير شوقا ، وأجمعت على أنه لابد لها من أمير تطيعه على اليسر والعسر ، واتفقت على أن يقرع بينها ، فأصابت القرعة أجدرها بالامارة وهو الهدهد .

فوضع التاج على رأسه وتقدم ، واجتمعت اليه أسراب الطيور فأشرف بها على طريق موحشة مقفرة ، فسأله سائل : ما لهذى الطريق مقفرة ؟ قال ان الناس تجنبوها اشفاقا وخوفا . وحكى أن أبا يزيد البسطامى خرج الى البرية فى ليلة مقمرة والناس نيام ، فراقه جمال الليل وتهويده . وعجب كيف خلا هذا المقام من المشتاقين ، فسمع مناديا يناديه ، ان الملك لا يأذن لكل انسان أن يسلك طريقه ، وأن عزتنا أبعدت السائلين عن بابنا .

ثم تقدمت الطير ، فرأت طريقا ولا غاية ، والما ولا دواء ، هنالك تهب ريح الاستغناء ، فينحنى لها ظهر السماء ، هنالك صحراء لايعبأ فيها بطاوس الفلك ، فكيف بطير هذه الدنيا (١) »

فلما هال الطير مارأت ، حفت من حول الهدهد فقالت : إنك طوفت فى الآفاق وعرفت كل شىء ، فأرشدنا الى السبيل لنسالك عما حاك فى صدورنا ، فلا بد أن نظهر قلوبنا من الرية . صعد الهدهد وشدا بعض الطير بالحان هاجت الطير وأذهلتها . ثم توالت الاسئلة فكان أول سؤال أن قال طائر : أخبرنى أيها الامام كيف فضلتنا جميعا . وكيف كان هذا التفاوت بيننا وبينك ؟ قال الهدهد : منحنى هذه الدولة نظرة من المليك . إنها دولة لاتنال بالطاعة ، فكم أطاع ابليس . لاأقول إن الطاعة لاتجب ، فعليك الطاعة . لاتفتر عنها ساعة ولكن لاتقدمها ثمنا . إمض عمرك فى الطاعات حتى تصيبك من سليمان نظرة . ثم سئل الهدهد عشرين سؤالا أجاب عنها مفصلا مسهبا ضاربا الأمثال . وكان السؤال التاسع عشر : ما الهدية اللائقة بتلك الحضرة التى نؤمها : وكان جواب الهدهد : لاتحمل شيئا فهنالك كل شىء ، وليس خيرا لك من الطاعة والعشق ..

والسؤال العشرون يفتح القسم الثانى من الكتاب ، وهو الذى يصف الأودية السبعة التى تعترض السائرين الى حضرة السيمرغ : سأل سائل ، كم فرسخا مسافة هذه الطريق . قال الهدهد : أمامنا سبعة أودية لاتعرف مسافاتها ، لأن أحداً لم يرجع منها فيخبرعنها . أمامنا أودية الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والاستغناء ، والتوحيد ، والحيرة ، والفقر والفناء .

البقية فى العدد الآتى

عبد الوهاب عزام

(١) يتخيل شعراء الفرس أن السماء فى مظهرها المقبب منحنية أو ساجدة خشية ، وكذلك يسمون الفلك أسماء كثيرة منها الطاوس لكثرة ما يبدو فيه من ألوان .

على هامش السيرة

للدكتور طه حسين

قطعة فذة من أدبه الرائع

تباع بالمكاتب الشهيرة والمكتبة التجارية بشارع محمد على لصاحبها مصطفى محمد وثمنها عشرة قروش

الخرائط المدرسية

حيوانات طيور نباتات

مجموعة خرائط قيمة متقنة الطبع بالألوان الطبيعية

مذيلة بشرح وافٍ باللغة العربية وفق منهج وزارة المعارف

طلبت منها مجالس المديريات والحكومات العربية

تطلب من مكتبة ومطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

بجوار سيدنا الحسين تليفون ٥٠٨٥٦ صندوق بوستة الغورية نمرة ٢٦ مصر